(٣٨)

البَصِيرُ جلّ جلاله

ذكر أبو نعيم في «الحلية»: "أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر ليلاً في سكك المدينة؛ فسمع عجوزًا تقول لابنتها: امزجي اللبن بالماء، فقالت البنت: أما علمت أن عمر نهى عن مزج اللبن بالماء؟ فقالت العجوز: وأين عمر حتى يرانا؟! فقالت البنت -الموقنة بنظر الله تبارك وتعالى إليهما-: إن كان عمر لا يرانا؛ فرب عمر يرانا!".

هناك أناس عاشوا في هذه الدنيا في منزلة عالية، في أمن دائم، في سعادة أبدية، في ثبات على الحق، متلذذين بالعبودية؛ وما ذاك إلا لأنهم علموا: أن الله بصير بما يعملون.

ورد اسم الله (البصير سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم في اثنين وأربعين موضعًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[المائدة:٥٤].

فربنا الذي يبصر كل شيء؛ وإن دق وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، يبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السماوات السبع.

وهو البصير العالم بالأحوال كلها، وبخفيات الأمور؛ الخبير بها، المطلع على بواطن الأمور.

وَهُوَ البَصِيرُ يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ ... السَّوْدَاءِ تَحْتَ الصَّخْرِ وَالصُّوَّانِ

وَيَرَى مَجَارِي القُوْتِ فِي أَعْضَائِهَا ... وَيَرَى عُرُوْقَ بَيَاضِهَا بِعَيَانِ

وَيَرَى خِيَانَاتِ العُيُوْنِ بِلَحْظِهَا ... وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ

ربنا ﷻ أثبت صفة (البصر) له ﷻ، فالله له عينان حقيقيتان، تليقان بذاته ﷻ، نؤمن بها من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى:١١].

واشتراك المخلوق مع الخالق في هذا الاسم لا يعني: المشابهة؛ فإن صفات المخلوق تناسب ضعفه وعجزه وخلقه، وصفات الخالق تليق بكماله وجلاله ﷻ؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى:١١].

ومن رحمة الله ﷻ بعباده: أنه يخاطبهم خطاب رحمة، وحثهم على طاعته والإخلاص له؛ مع أنه غني عن عبادتهم؛ ففي كتاب الله -العزيز- خاطب بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فوق الأربعين مرةً؛ ليذكر المؤمن، وينبه الغافل بأن الله مطلع على أعمالهم.

❐ حلاوة الامتثال..

ومن علم أن ربه مطلع عليه؛ استحى أن يراه على معصيته أو فيما لا

يحب، ومن علم أن الله يراه؛ أحسن عمله وعبادته، وأخلص فيهما حتى يصل لمقام الإحسان؛ وهو أعلى مقامات الطاعة؛ التي قال عنها الحبيب ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [أخرجه البخاري ومسلم].

فإذا بلغ ذلك كان في معية الله الخاصة لعباده؛ كما قال الله ﷻ في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ» [أخرجه البخاري].

ومن علم أن الله يراه على ما هو عليه من الابتلاء، اطمأنَّ قلبه، وسكنت نفسه، وتيقن أن الفرج قريب.

ومن علم أنه يراه استحى من الله أن يراه خائنًا في أعماله وأقواله غاشًّا لعباده.

خرج ابن عمر ﷺ إلى مكة في بعض أصحابه، فاستراحوا في الطريق، فانحدر عليهم راع من جبل، فقال له ابن عمر: "يا راعي الغنم! بعنا شاةً!

فقال الراعي: إني مملوك -أي: أنا عبد مملوك-.

فقال له ابن عمر: قل لسيدك: أكلها الذئب.

فقال الراعي: أين الله؟".

فبكى ابن عمر، واشترى الغلام (الراعي) من سيده وأعتقه.

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ

خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ سَاعَةً

وَلاَ أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

راود بعضهم أعرابيةً عن نفسها؛ فقال لها: لا يرانا إلا الكواكب، فقالت له: أين مكوكبها؟

وقد قيل: من راقب الله في خواطره؛ عصمه في حركات جوارحه.

وإذا نظرت إلى السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ وجدت أن الشيء المشترك بينهم أنهم: آمنوا حق الإيمان بأن الله ينظر إليهم؛ فعبدوه كأنهم يرونه؛ فنالوا المنزلة.

وبهذا الاسم دعا الرجل الصالح من قوم موسى، ملتجئًا لله ﷻ معتصمًا به من مكر فرعون وقومه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾[غافر:٤٤].

فماذا كانت النتيجة؟

استجاب الله لدعائه: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾[غافر:٤٥] .

يَا مَنْ يَرَى صَفَّ البَعُوْضِ جَنَاحَهَا

فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ البَهِيمِ الأَلْيَلِ

وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوْقِهَا فِي نَحْرِهَا

وَالمُخَّ مِنْ تِلْكَ العِظَامِ النُّحَلِ

أُمْـنُنْ عَلَـيَّ بِتَوْبَـةٍ تَمْحُـوْ بِهَـا

مَـا كَـانَ مِنِّـي فِـي الزَّمَـانِ الأَوَّلِ

□ **ذكــرى..**

والمؤمن يحذر من ذنوب الخلوات والإصرار عليها دون توبة، جاء في «الصحيح» من حديث ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالَ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ ﷻ هَبَاءً مَنْثُورًا»، قال ثوبان: يا رسول الله! صفهم لنا، جلهم لنا؛ أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم! قال: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا» [رواه ابن ماجه] وهؤلاء الذين يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا.

والخلوة إما ترفع وإما تخفض، فمن عظَّم اللهَ في خلوته عظَّمه الناس في جلوته.

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: " النفاق الأصغر كلّه يرجع إلى اختلاف السريرة و العلانية"، وقال : "الخاتمة الحسنة لا تقع إلا لمن كانت سريرته حسنة؛ لأن لحظة الموت لا يمكن تصنّعها، فلا يخرج حينئذٍ إلا مكنون القلب".

اللهم يا بصير! ارحم ضعفنا وتجاوز عن تقصيرنا وزلاتنا وتوفنا مسلمين؛ يا رب العالمين.